مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

دراسة لكتاب

«الإسلام ومستقبل الحضارة»

للدكتور صبحي الصالح

بقلم الأستاذ

محمد عبد السلام الجفائري

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

يعتبر الدكتور صبحي الصالح من خيرة الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين يتميزون بالثقافة الواسعة، والعقلية المتفتحة ذات الآفاق الرحبة، مما يمكن معه أن نصفه بأنه كان (عمامة متحضرة)، قدم إلى المكتبة الإسلامية العديد من البحوث والدراسات والكتب القيمة، نذكر منها:

1 ـ مباحث في علوم القرآن.

2 ـ علوم الحديث ومصطلحه.

3 ـ دراسات في فقه اللغة.

4 ـ النظم الإسلامية.

5 ـ معالم الشريعة الإسلامية.

6 ـ الإسلام والمجتمع العصري.

7 ـ الإسلام ومستقبل الحضارة.

ولد الدكتور صبحي الصالح في طرابلس (لبنان) في عام 1926 م، وحصل

على عالمية الأزهر الشريف من كلية أصول الـدين في عام 1949 م، وعلى دكتـوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون (باريس)، في عام 1954 م، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي ببغداد، وأكاديمية المملكة المغربية بالرباط، ولجنة الإشراف العليا على الموسوعة العربية الكبرى بدمشق.

نشـرت دار الشورى ببيـروت كتاب (الإسـلام ومستقبـل الحضـارة) للدكتـور صبحي الصالح، وظهرت طبعته الأولى في عام 1982 م في (442) صفحة تضم اثنين وعشرين فصلاً بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة.

أراد الدكتور صبحي الصالح في كتـابه هـذا مع بـداية القـرن الخامس عشـر الهجري، وقبيل نهـاية القـرن العشرين الميـلادي (أن يتساءل عن مصيـر الحضارة القائمة، وعما إذا كانت تمر بأزمـة خانقـة أم أنها تتجـه بثبات نحـو مزيـد من عمارة الكـون، وتنمية الحيـاة وإسعاد الإنسـان في عصـر العلم والتسـارع التكنـولـوجي) (ص 27).

ويأتي هذا التساؤل من حرصه على استمرار الحضـارة، والرغبـة في إنقاذهـا من انحـراف الإنسان المعـاصـر بجـوهـرهـا الأصيـل. وهـذا التسـاؤل يـدعـو إلى استخـلاص آراء العلماء المسلمين فيمـا انتهت إليه حضـارة العصر من إيجـابيـات وسلبيات ومن الواضح أن الدكتور صبحي يولي اهتمامه بالمستقبل أكثـر من التفاتـة إلى الماضي فيتطلع إلى الأمام ويتساءل: إلى أين نسير؟ وكيف يكون المصير؟

ويلاحظ منذ البـداية أن هنـاك تحديـات كثيرة في هـذا المجتمع العصـري، (للإنسان من حيث هو إنسان، وللإنسان من حيث هو مفكر، وللمفكـر من حيث هو مؤمن أو ملحد) (ص 7). أي أن التحديات تواجه كل إنسان.

ومن هنا كان منطلق الباحث وهو يسلط الأضواء على المجابهة التي تدور بين الإنسان المفكر المسلم الذي (يجمع في شخصه صفاء الاعتقـاد وسلامـة التفكير) وبين التحديات المعاصرة التي تواجهه.

ويـرى أنـه من الـلازم أن يبـدأ المفكـر المسلم في مجـابهـة نقـديـة لأسس الحضارات، وأن يناقش قضية التسلسل الحضاري، حتى يدرك الأسس التي قامت

عليها الحضارة الغربية المعاصرة. وبهذه المجابهة النقدية يستطيع أن يضع خطاً فاصلاً بين جوهر الفكر الإسلامي وبين ما أدخلته الحضارة المعاصرة من تشويه لذلك الجوهر.

ومن هنا يبدأ المفكر المسلم في تجميع المعلومات التي عرفها من دراساته المختلفة من علوم الإنسان ليؤكد من خلالها أن حضارة أي شعب من الشعوب هي عبارة عن المنظومة الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي تحكم ماضيه وحاضره (ص 8)، ويتيقن من أن البناء الحضاري لا يتم من فراغ، ومن هنا يدرك المفكر المسلم أنه في حاجة إلى القيام (بتحليل العناصر المؤلفة للحضارة وردها إلى الأصول التي كانت عليها قبل التعقيد والتركيب) (ص 8). إلا أنه سيقع في اختيار صعب (بين إيجابيات النموذج الحضاري الجديد وسلبيات واقعنا المتخلف المريض)، وسيكتشف أن أعنف تحديات العالم الغربي لنا يكمن في التسارع التكنولوجي المذهل الذي تمثل في مضاعفة الانتاج والرغبة في إيجاد الأسواق الكفيلة بتصريف هذا الانتاج الزائد، مما نشأت عنه صراعات كبيرة وتناقضات حادة، تجعل المفكر المسلم يعيش في حيرة إذ (يخيل إليه أنه واقع بين فكي سبع ضار جوَّعُوه منذ أيام . .) (ص 9).

ولكن الإنسان المسلم لا يمكن له أن ييأس وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿**ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ [سورة يوسف، الآية: 87]. إن المفكر المسلم الذي يمثل النموذج الإسلامي يدرك مسؤوليته ودوره في مواصلة الجهاد بدون يأس أو كلل، من أجل انتصار القيم العليا التي جاء بها الإسلام، الداعية إلى عمارة الكون، وإسعاد الإنسان وترقية الحياة، ولا يقف عند التقليد للإنجاز التكنولوجي الغربي، ولكنه يدعو إلى المشاركة والتخلص من عقدة الشعور بالنقص وغربة الروح، ومحاصرة النموذج الغربي وماديته وأيديولوجية النموذج الشرقي الشيوعي، ولا شك أن المفكر المسلم قادر على استلهام الموقف الصحيح الأصيل من تاريخ الصراع المرير بين المسلمين والتتار والصليبيين، ويحاول أن يحدد للمسلمين موقفاً سليماً ينبغي التزامه، للمحافظة على الشخصية الإسلامية، يبدأ من رفضه للمركزية الأوروبية وتبعيته لها، مما أدى به إلى

(التغريب) والقابلية للاستعمار وإدراكه بـأن محاولـة التوفيق بين النمـوذج الإسلامي وإيجابيات النموذج الغربي تـطبع هـذه المحاولـة بطابـع التلفيق، كما يـرى أنه من اللازم أن يعود إلى جوهر الأصـالة، ليكـون العالم الإسـلامي قادراً على استيعـاب المنـظومة الحضـارية الإسـلامية التي تـزداد إشعاعـاً وتألقـاً كلما تكـاثرت حـركات الإصلاح. .) (ص 12).

ويلفت الباحث نظرنا هنا إلى عدم الاهتمام بالمعارك الجانبية أو الهامشيات، والتركيز على القضايا التي تمس الجوهر، ليكون تحديـه إيجابيـاً، وانتصاره مؤكـداً بـإذن الله ولا شك أن مـواجهة المفكـر المسلم لهذه التحـديات المعـاصـرة بـروح إيجابية لا تجعل منه إنساناً يدافع عن شخصه ولكنه (يوشك أن يجعـل من نموذجـه الفكري أمارة حقيقية على وعي إسلامي) عميق بـدأ في السنوات الأخيـرة يستوعب كل مجالات الحياة) (ص 14).

في الفصـل الأول يتحدث الـدكتـور صبحي الصـالـح عن مفهـوم الحضـارة وضرورة تحديده بصورة دقيقة، مبتدئاً بالشرح اللغوي، ثم رأي المؤرخ الكبيـر ابن خلدون (ت 1406 م) الذي يعرف الحضـارة بأنهـا (غايـة العمران، ونهـاية لعمـره، ومؤديـة لفساده) وهي لا تـزيد على التفنن في التـرف، واستجادة أحـواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه).

والمؤلف لا يـوافق ابن خلدون على فكرتـه هذه ويـرى أن في ذلـك تصغيـراً لحجم الحضـارة، لأنه لم يهتم إلا بجـانب واحد من الجـوانب السلبيـة التي تتعلق بالترف، ويحسبه هنا قـد خلط بين جوهـر الحضارة وبعض أغـراضها، إذ لا يعتبـر التفنن في ألوان الترف والنعيم سبباً يحتم فساد العمران ونهاية عمره. ومن هنا يدعو الباحث إلى ضرورة تحديد مفهـوم (الحضارة) بصـورة أكثر دقـة وتمايـزاً، ويرى أن لفظ (الحضارة) بمفهومـه الاصطلاحي العـربي الحديث أشمـل من ألفاظ المـدنية والتعمير والعمران، إذ أن (كـل مدنيـة حضارة، وكـل عمران حضـارة، وكل تعميـر حضـــارة، ولكن الحضـارة ليست شيئـاً واحـداً فقط من تلك الأشيـــاء المتـداخلة المتشابكة) (ص 19).

لقد تنوعت المدارس الاجتماعية و (الأثنولوجية) بين فرنسية والمانية، وأنكلوسكسونية. وكان لكل مدرسة من هذه المدارس تعريف خاص للحضارة، مما زاد الأمر لبساً وغموضاً عند المحاولة لتحديد معنى الحضارة، والمدنية والثقافة. ويستخلص المؤلف بعد عرضه لوجهات النظر المختلفة ـ أن الحضارة (تراث أمة تراكم في الماضي، ويتجدد باطراد ويزيد التتابع الحضاري نماء على نماء. . .) (ص 20) ويدرك أن المدنية (مرتبة من مراتب الحضارة وصورة من صورها) (ص 21) ويفصل القول مع (ماكيفر MACIVER) في كتابه الدولة العصرية في التمييز بين المدنية والحضارة ويؤكد معه (أن المدنية تتمثل في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا) على حين تتمثل الحضارة في الفنون والآداب والديانات، والأخلاق، وأن المدنية هي ما نستعمل، أما الحضارة فهي ما نحن) (ص 21) كما يقرر مع توماس مان، وراتناو، وكيسرلنج من العلماء الألمان (أن الحضارة هي الروح العميقة للمجتمع، وأن المدنية هي الآلية الصماء) (ص 21).

يمكن أن نصف عصرنا اليوم بأنه عصر العلم و (التكنولوجيا) ولكن هذا يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان للقيم الروحية مكان في هذا العالم بعد أن أوشكت النزعة المادية على السيطرة؟ يجيب المؤلف بأن ظاهرة النسبية في كل القيم بارزة بعد التحول الكبير الذي حدث للمجتمع المعاصر، ويستعير من ابن خلدون عبارته الشهيرة التي تشبه تاريخ الحياة الإنسانية بالذاكرة العامة للجنس البشري كله، ومن هنا نرى (أن الأحوال إذا تبدلت جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد) (ص 25).

ولا شك أن العالم قد تحول تحولاً كبيراً كما تنبأ ابن خلدون، وأصبح كأنه خلق جديد، ومن هنا أصبحت القيم أمراً نسبياً قابلاً للتعليل والتأويل.

يرى الدكتور صبحي الصالح أننا مهما تعمقنا في بطون المعاجم والموسوعات، فلن نجد فيها تعريفاً للعلم بأنه هو (المعلومات) ولا (التكنولوجيا) بأنها الأجهزة والآلات، ولكننا نجد أن (العلم عملية خلق في الأساس) (ص 26) أي أنه قيمة من قيم الحياة، وإذا كان التسارع التكنولوجي الذي يعتبر (أعظم ثمرة

من ثمرات العلم) قد سلب من الإنسان أعظم مزية تتيح له الإفادة مما أعطاه، عندما صرفه بعنف وقسوة عن قيمة الروح) (ص 27)، فإن المؤلف يلاحظ بأن هناك مبالغة وغلواً في تقدير قيمة (العلم) التكنولوجي على حساب الثقافة الإنسانية، وقد وصل الغلو إلى حد لا يطاق من الغرور والتعالي، ولكن الصحيح أنه لا بد للإنسان من عنصرين متكاملين: طبيعته الروحية والآلة التي تفيد الإنسان وتيسر رفاهيته). ولكي تسير الحياة بصورة إيجابية عادلة يجب أن يتم التناسق والتوازن بين هذين العنصرين.

إن الإسلام يؤكد قيمة العلم والعلماء، وهو لا يحصره في نوع معين كالتفقه في أحكام الدين بل وأن العلم المطلوب هو (قواعد المنهج الموصلة نظرياً وعملياً، تأملياً وتجريبياً إلى الكشف الدقيق العميق، عن أطوار الإنسان، وأوضاع المادة، ونواميس الوجود) (ص 30) والإسلام يرفض أن يكون التقدم العلمي والتكنولوجي على حساب القيم لأنه لا يريد للإنسان أن يكون ممزق الوجدان، مشتت النوازع، مع إعطاء الأولوية للقيم (التي لولاها لما كان العلم، ولا الحضارة، ولا كان في الحياة شيء من الإبداع) (ص 44).

لقد انطلقت القيم الإسلامية من معاني التعاون والتكافل، ومن مفاهيم التقوى والإخلاص، لأن الإسلام يهدف ـ كما تهدف بقية الأديان السماوية الأخرى ـ إلى تثبيت وترسيخ معاني الإيمان والأخلاق في النفوس، وقد وصف الرسول الكريم محمد ﷺ رسالته بأنها جاءت (لإقامة مكارم الأخلاق، وتتميز القيم الإسلامية بالواقعية والإيجابية التي توفق بين الفرد والجماعة، والعلم والعمل، والعدل والسلام، وبين استعداد الفرد النفسي لطاعة الله، واستعداده الاجتماعي لخدمة الناس...) (ص 47) والإنسان ـ في التصور الإسلامي ـ هو خليفة الله في أرضه، خلقه لعمارة الكون وترقية الحياة، ومن هنا كرمه الله وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً... وهو الكائن الممتاز ذو العقل والنفس والروح، والاستعداد للسمو والانحدار، والهدى والضلال قال تعالى: ﴿**ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين، فلا اقتحم العقبة**﴾ [سورة البلد، الآية: 8 - 11] فهلا اقتحم بواقعية

وإيجابية في هذا الوجود كل العقاب، وذلّل كل الصعاب، وارتفع بالعلم والإيمان إلى أعلى مكان!) (ص 47).

حدد الإسلام العلاقة بين الإنسان وربه على أساس التعامل مع إله موجود، حي قيوم، عليم خبير، فعّال لما يريد، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، ويعني ذلك أن العلاقة بين الإنسان وربه هي علاقة واقعية إيجابية، تدعو إلى التأمل والتفكر والبحث عن العلم واستخدام الطاقة الفكرية، وطرح التقليد مشبهاً الذين عطلوا هذه الطاقات بالأنعام بل هم أضل.

وقد تعرضت القيم والمثل إلى هزات عنيفة في هذا العصر الذي يتسم بالتسابق التكنولوجي الذي حقق تواصل الأبعاد، وتقريب المسافات، ولكن الضمير الإنساني المتدين لا يخشى من هذا التواصل، ولكنه يخشى من ابتعاد الإنسان عن القيم الأخلاقية - وغياب روح الأصالة، والتشكيك في قيمة المعارف الإنسانية، والاعتزاز بالتكنولوجيا وما حققته من انجازات مذهلة، وقد تنبه كثير من العلماء أمثال سوريل Sorel وأرون Aron وفريد مان Fried man وباستيد Bastide وغيرهم إلى الأزمة الحقيقية التي تواجه الإنسان في هذا العصر، وتنبه شانكس Shankes إلى المخاطر التي تواجه الإنسان المعاصر، مصوراً في كتابه (المبتدعون) The movators كراهية الإنسان للتغيير (مؤكداً أن كل ضمير إنساني متديناً كان أو غير متدين يقاوم التغيير ويأباه ويرهب المستقبل ويخشاه) (ص 54) وقد توقع أن يكون العصر التالي عصر الفراغ... (وما الفراغ إلا تيه ولا التيه إلا الضياع ولا الضياع إلا ركام، ولا الركام إلا حياة في الظلام). (ص 54).

كما صور (ماركوز) Herbert Marcusa في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) مخاطر تواصل الأبعاد وتقريب المسافات. لأن ذلك يجعل حياة الإنسان خاوية. وقد أصبح المجتمع الغربي المعاصر مجتمعاً يعيش في خوف دائم. إذ يخاف التاجر من تسرب المعلومات ويخاف العامل من شبح البطالة، ويخاف الموظف من شبح الفصل من الوظيفة، ويخاف الصحفي من كساد جريدته أو كتبه، ويخاف الطالب من ضعف ذاكرته. كما يخاف المريض من ارتكاب الأخطاء الجسيمة التي

قد تُفضي به إلى الموت، أي أن الجميع يخافون من تواصل الأبعاد، لأنه هذا التواصل يضعف من صلة الإنسان بنفسه، وارتباطه بأخيه، خاصة بعد أن أهمل الإنسان تربية ضميره، وتزكية وجدانه، وابتعد عن القيم فأصبح وحشاً كاسراً يبحث عن الفريسة، ويتعامل مع الناس وفقاً لقانون الغاب.

إن ظاهرة العنف عرفت قديماً عند البدائيين، ولكنها تصاعدت وأصبحت أشد وأقسى في المجتمعات المعاصرة ولعل ذلك يرجع إلى (رفض الواقع، والخوف من المستقبل) (65).

إن النظرة التحليلية لظاهرة العنف من زاوية (سوسيولوجية المعرفة) تؤكد لنا أن جوهر العنف واحد في القديم والحديث، إلا أن ظاهرة العنف أصبحت السمة التي تطبع عصرنا، وإن كانت تعتبر في جوهرها نسبية (لأنها قضية إنسانية).

وهنا يحدد الدكتور صبحي الصالح أنواع العنف ويقسمها إلى ثلاثة أقسام أساسية هي: -

(أ) النزوع الإجرامي المشترك بين القديم والحديث.

(ب) العنف الآلي (الميكانيكي) اللاشخصي.

(ج) العنف الثوري (الأيديولوجي).

وقد أرجع آرنولد توينبي Arnold Toynbee كل مظاهر العنف إلى ما في تنظيم المجتمع العصري من تغطية ورقابة وطبيعة لا شخصية تناقض جوهر الطبيعة الإنسانية القائمة أساساً على الأصالة الذاتية، والمبادرة الفردية، والقيمة الشخصية (ص 68).

لقد بدأ الإنسان يشعر بفقدان إنسانيته وسط الحروب وألوان العنف المختلف كما حدث في فيتنام وغيرها من بلاد العالم لأن المجتمعات المعاصرة أصبحت تواجه عنفاً رهيباً بقتل الأطفال، ودفع المراهقين والشباب للانهيار العصبي والأمراض النفسية والعقلية، فلجأوا إلى المخدرات والعقاقير الأخرى، بعد أن صرفهم التسارع التكنولوجي عن قيم الروح، وسلب منهم راحة البال، وملأ

حياتهم بالصخب والضجيج، كما أصبح المجتمع المعاصر مجتمعاً عنيفاً قاسياً يقدم للإنسان الخدمات بيد، ويوجه إليه اللكمات باليد الأخرى، ووسط هدير المصانع، وصخب السيارات، وأزيز الطائرات، والأصوات المرتفعة ذات الرنين العالي، وموسيقى الجاز والتويست الصاخبة، غابت نعمة السكون وأصبح العالم مجنوناً.

إن المهم أن لا تتسم إرادة التغيير في الإنسان بسمة استعمال العنف، ابتغاء الحلول الجذرية (ما دام الإنسان قادراً على استعمال ملكة أخرى هي ملكة الذكاء يوجه بها كل طاقاته وقواه) (ص 70).

ويرجو الباحث من كل إنسان أن يحدد مسؤولياته، أمام خالقه، وأمام ضميره، وأما التاريخ (ص 70) ولو فعل الناس ذلك، لاختفت ظاهرة العنف أو قَلَّتْ حدتها، ولعاش الناس في مجتمعات هادئة ليس للصخب والعنف مكان فيها، بل تكون مهاداً للتقدم العلمي الايجابي، والنشاط الروحي والأخلاقي الفعال، والنشاط الاقتصادي الهادف لمنفعة الجميع، المحقق لعمارة الكون وتقدم الإنسان وترقية الحياة.

يوقظ القرآن الكريم مشاعر الناس بآياته الخالدة التي تذكرهم دائماً بعظمة الله وقدرته إلا أنهم ينسون هذه الآيات لأنها تتكرر كل يوم، ومن ذلك آية الليل والنهار اللذين كان يسميهما العرب (الجديدين) لأنهما يتجددان كل يوم، كما أن جدتهما المتكررة لا تبلى، ولكن الناس بحكم الإلْف والعادة، ينسون هذه الآية العظيمة وما فيها من حقائق وأسرار، كما ينسون العديد من الآيات الأخرى ـ وآيات الله لا تعد ولا تحصى ـ كآية التزاوج بين الخلايا الذكرية والخلايا الأنثوية وآية النوم واليقظة، وآية الشمس والقمر والنجوم، ونشاط النحل في صنع العسل، ونشاط الساعة الداخلية الحية الكامنة في كل كائن حي.

إن الإسلام يريد من كل إنسان أن يدرك قيمة الزمن لأنه يريد من الناس أن يستمروا في تجديد أنفسهم وتزكيتها (ويتذكَّروا التفكر والتعقل) ليكون الغد أفضل، والحياة أكثر رقياً وسمواً، متخذين من قوله الكريم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**

ولتنظر نفس ما قدَّمتْ لغد، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾ [سورة الحشر، الآية: 18] شعاراً لهم في هذه الحياة. إن القرآن الكريم دعوة إلى الحياة والاحياء، وإلى ما ينسق بين (أطوار المادة وأشواق الروح.. وإلى إدراك العلاقة الوثيقة بين الإحساس المادي والإحساس الديني، واكتشاف العلاقة الواقعية بين القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي..) (ص82).

ولو قرأنا تراثنا العظيم لأدركنا علاقة التاريخ بعلم الاجتماع الذي كان السلف يسمونه (علم العمران والإنسان) (ولأدركنا أن الوعي التاريخي السليم عملية تطهير لأمتنا) (ص82) ولأدركنا مع ابن خلدون ـ أن تاريخ الحياة الإنسانية أشبه شيء بذاكرة عامة للنوع الإنساني الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه، (ولأدركنا أن الأحوال إذا تبدلت جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد).

ولا شك أن أحوال البشر قد تغيرت كثيراً في المجتمعات المعاصرة، وبالتالي تبدل الخلق كثيراً، وأصبح العالم بأسره، كما تنبأ ابن خلدون، كأنه خلق جديد، وأصبحت قيمة الحياة الإنسانية أمراً نسبياً، وأصبحت حياة الإنسان لا قيمة لها، إذ نرى هدراً (لقيمة الإنسان، وقيمة الشخص، وقيمة الحياة، في نماذج من الضحايا الأبرياء) (ص 85) من أطفال ومراهقين وشباب وكهول وشيوخ وعجزة، يتعرضون لألوان شديدة من العنف (إذ يحصدون برصاص الحروب، وقنابل النابالم وصواريخ المتحضرين) (ص85) دون ذنب اقترفوه أو جريمة ارتكبوها، فلم يجدوا اهتماماً من أحد (بل استخف بهم الجميع): . إنها (عقدة الغرور) التي تشرد عباد الله، وتُنزل بهم ألوان العدوان، لأنهم ابتعدوا عن الروابط الأسرية، وأصبحت العلاقات بين أفرادها علاقات آلية ميكانيكية (انتزعت منها إنسانية الإنسان) ولذلك صرخ أندريه جد Andre Gid (أيتها العائلات... إني أكرهكِ)..

ولكن الصرخات التي يطلقها المفكرون والمصلحون لم تعد تكفي لانقاذ المستضعفين والمعذبين في الأرض أو (استرداد شعورهم بقيمة حياتهم) كما أن

الوسائل العلمية لاطالة العمر، والتقليل من نسب الوفيات لم تعد كافية، ومن هنا لم يبق (إلا الإقرار بأن المسألة.. ترتد إلى استعادة الإنسان قيمته الحقيقية التي يحرص عليها نظام الإسلام) (ص 86) الذي يعلن رعايته لقيمة الحياة، وكفل حق التكريم للإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض.

يدعو الإسلام إلى المساواة بين الناس، وتعمل الشريعة الإسلامية على (الحد من آثار التفاوت الاجتماعي) فحاربتْ كنز الأموال، إذ أنها ليست غاية لذاتها، ولكنها وسيلة لضمان العيش الكريم، ومنعت الاحتكار، وأوجبت العمل على كل فرد قادر ومن هنا (حرم الإسلام كل مال يكسبه الإنسان بلا جهد ولا معاناة) وقد أحل الله البيع وحرم الربا، كما حرم الميسر والقمار، وحذر من التبذير، ودعا إلى الاعتدال لأنه فضيلة والفضيلة وسط بين رذيلتين.

والإسلام بهذه الوسائل يهدف إلى تأمين حاجات الفقراء (تحقيقاً للعدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات) (97).

يناقش الدكتور صبحي الصالح (عقود التأمين بين التشريع والتوجيه) معتمداً بصورة خاصة على كتاب الدكتور مصطفى الزرقا حول عقود التأمين لما تضمنه من تحليل جيد ونتائج مهمة من وجهة نظره.

وكنت أتمنى ـ كقارىء ـ لو تأنى قليلاً في هذا الفصل، لأن موضوع التأمين ما زال يحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث من قبل العلماء المتخصصين، حتى تكون أحكامنا صائبة مستقاة من روح الشريعة الإسلامية ومبادئها ومقاصدها.

يلاحظ الدكتور صبحي الصالح بأن مجتمعنا المعاصر يتسم بغربة الروح، إذ جنح الناس (في مفهوم الاغتراب إلى السلب بدلاً من الايجاب) (ص 141) (ولم تكن هذه الغربة محصورة في نطاق الدين والمعايير والمثل والأخلاق) فقط بل انتقل مفهوم الاغتراب من مضمونه الفلسفي إلى المفهوم الواقعي، وارتبطت غربة الروح بهجرة العقول الواعية، وغياب الأصالة والإبداع والقيم الايجابية بشكل واضح. وغربة الروح أو الاغتراب عن الذات يعتبر ظاهرة قديمة جداً. وقد أشار إليها القرآن الكريم في سورة الصافات على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**وقال إني**

ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [الآية:99]، كما عرفت هذه الظاهرة في الفكر اليوناني، وقد وصفها هوميروس في بعض قصائده، كما انتقد مفهوم الأفراد والجماعات، وعرض لهذه الظاهرة في كثير من النصوص الإسلامية التي يأتي في مقدمتها الحديث المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه: بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء.

ويلاحظ هنا أن الغرباء هم الذين يتصفون بالصلاح عند فساد الناس، ويتميزون عن أهل زمانهم بأصالة الفكر وعمق الوعي واطمئنان الروح، وقد عرّف الهروي الأنصاري الاغتراب في كتابه (منازل السائرين) تعريفاً إيجابياً حين قال (إن الاغتراب أمرٌ يشار به إلى الانفراد على الاكفاء) (ص 146).

ولا شك أن تعريف الاغتراب في الإسلام لا يعني الانسلاخ عن الذات، أو التحلل من القيم والمعايير، أو سوداوية المزاج أو التشاؤم والكآبة والضجر والانسحاب من عالم الواقع إلى غير ذلك من المصطلحات والعبارات (الوجودية) بل أن الزهد في الإسلام هو (زهد القادرين لا زهد العاجزين) وعندما قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، فهم ابن عمر هذه الوصية النبوية فهماً جيداً، وعمل على تطبيقها فقال: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك..) وقد استلهم هذا المعنى من الحديث النبوي المشهور: (اغتنم خمساً قبل خمس) ولم يكن الرسول ﷺ يُهوِّن من قيمة الحياة وإنما كان يثير فينا دوافع الحركة والبناء والتعمير) (ص 147).

إنَّ دعوة الإسلام ليست دعوة إلى الضياع في دنيا الفراغ ولكنها دعوة إلى الحياة والأحياء قال تعالى في سورة الأنفال: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾** (الآية:24).

ولم يحس الغرباء من العلماء والزهاد والمجاهدين السابقين بالضآلة والصغر في ظل النظام الإسلامي، لأنه نظام يقوم على العدل والخير ولذلك لم يتحولوا إلى

مجتمعات صغيرة منعزلة، ولم يفهموا معنى الغربة بأنها انعزال وابتعاد عن الحياة، ولكنهم فهموا الاغتراب بمعنى التفرد والتميز وأن لا يعطوا ذواتهم لأحد غير بارئهم ومن غير أن يضطروا إلى بيعها لأحد غير خالقهم الذي اشتراها منهم (ص 147) قال تعالى ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [سورة التوبة، الآية: 111].

ومن هنا ندرك أن المغترب في المنظور الإسلامي - يغترب عن دنيا الظلم والجور، والكذب والزيف والنفاق، لكنه لا يغترب عن نفسه ولا عن الله (ص 150).

ويناقش الدكتور صبحي الصالح قضية المرأة باعتبارها بنتاً كانت أو أماً، أو زوجة، وهي في منطق القرآن الكريم إنسان وهي أنثى في مصطلح الحياة، إذ لا نكران لأنوثتها حين تُقابَل بالذكورة كما تُقابَل المرأة بالمرء وتُقابَل العمة بالعم والخالة بالخال والشقيقة بالشقيق ولكن هذا التقابل الاصطلاحي لا يلبث أن يختفي وراء المعاني الإنسانية التي أبرزها القرآن الكريم التي توحد بين الجنسين في النشأة والمصير لأنهما خلقا من نفس واحدة.

وتناول قضية تنظيم النسل بين التحديد والإخصاب، وعرض العديد من الأحاديث النبوية والوقائع التاريخية، وآراء الصحابة، وأقوال العلماء والفقهاء في هذه القضية، مؤكداً بأن الإسلام وجه بصراحة قضية تحديد النسل، ولم يكن ذلك تحت ضغط الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية ولكنه عالج هذه القضية في حياة النبي ﷺ نفسه، ولم يغفل أي جانب من جوانب الحياة إلا أنه (رد الأمر كله لله) ولم يَرْضَ للمؤمنين أن ينقص شيء من توكلهم على الله (ص 192) كما عالج الفقهاء هذه القضية بروح علمية ونظرةٍ واقعية، مستنتجاً بأن الشريعة الإسلامية تحرص على الجمع بين كرامة الإنسان ومصلحته.

وينتقل الدكتور صبحي الصالح إلى مناقشة قضية الحرية والحريات وطابعها الحضاري في الإسلام، منطلقاً من الربط بين مفهوم الحرية ومفهوم المسؤولية، أو مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والباحث لا يرى ضرورة لفصم عرى

الحرية عن المناخ الديني وربطها بالجانب الاجتماعي كما فعل أصحاب نظرية العقد الاجتماعي أمثال هوبز ولوك وجان جاك روسو، وقد كان الرسول ﷺ (أول من نبه إلى نسبية الحرية عندما صنف في زمرتين نشاط الناس المبكرين لأداء أعمالهم فقال: (كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها) وتتميز الشريعة الإسلامية بـ (تنسيقها الرائع بين أنواع الحرية، ابتداء من أقدمها وآصلها حتى أشدها تعقيداً وتطوراً. . .) (ص 202) كما حددت العلاقة بين الفرد وذاته، وبين الفرد والآخرين، وبين الفرد والدولة، وبين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول.

ويلاحظ الباحث هنا أنه بالرغم من السمات المميزة للحرية في النظام الإسلامي نجد ـ مع الأسف ـ أن الكثير من الدول العربية والإسلامية لا تطبق مفهوم الحرية في الإسلام كما نجد أن (خصائص الحرية في الإسلام قد امتزجت بكثير من النظريات الأخرى المتعلقة بمفهوم الحرية وخصائصها) (ص 216) كما تخاف من مخاطر التسابق (التكنولوجي) وأزمات التقدم وسرابه أو أوهامه، والإسلام لا يهتم بالمسلمين فقط، ولكنه يهتم أيضاً بغير المسلمين الذين يعيشون في نطاق المجتمع الإسلامي، والنظرية الإسلامية تقوم أساساً على عد البشر جميعاً أمة واحدة (ص225)، ويعمل على كفالة حقوق الإنسان ورعايته. ويلاحظ الباحث أن المفكر الإسلامي قد عالج الشؤون التي تمس غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مؤكداً بأن (الإسلام ذو نزعة عالمية) إذ أن الدعوة الإسلامية جاءت إلى الناس كافة دون إكراه في الدين، بل إن الإسلام يحاول إزالة كل صورة من صور الإكراه للناس على اعتناق أي دين (ص 229) لأن هذا الدين ـ كما قال أحد المفكرين الإسلاميين المعاصرين (إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ـ إنه ثورة شاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها)، وبالرجوع إلى المبادىء الإسلامية والأحكام الشرعية التي استنبطها الفقهاء نجد أنها تؤكد بلهجة حاسمة أن (الإسلام انتصر بسلاح الفكر والإقناع، ولم يفرض تعاليمه فرضاً على الناس بمنطق الإكراه والإرهاب) (ص 238) يحدد الباحث الأسس المشتركة بين دينين وحضارتين مبيناً أن القرآن الكريم صرح بأن أسس الدين قد وردت في قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا، والذين**

هادوا، والنصارى، والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة البقرة، الآية: 62] ومن هنا تبين أن الأسس المشتركة بين الأديان القائمة على أصل فكرة الوحي:

1 ـ الإيمان الخالص بالله.
2 ـ الإيمان باليوم الآخر.
3 ـ العمل الصالح.

وقد عمل الإسلام على تثبيت وحدة الدين فذكر القرآن الكريم لفظ (الدين) في الكثير من الآيات الكريمة بصفة الإفراد لا الجمع، وحذر المسلمين من التفرق (ودعاهم إلى إقامته على أكمل الوجوه) (ص 242)، ويشير الدكتور صبحي الصالح إلى اللقاءات الخاصة بالحوار الإسلامي المسيحي، ويرى أن أهم شيء في هذا الإطار حتى يكون مجدياً (أن يكون القاسم المشترك الأعظم مرتكزاً بصورة دائمة على الإله الواحد) (ص 261)، مع تجنب الخوض في التفصيلات مشيراً إلى أن القرآن الكريم هو أعلى من كافة الآراء المتناقضة، كما أن أصول العقيدة في الإسلام تقوم (على تعريف الناس بربهم الأحد تعريفاً دقيقاً شاملاً لخصائص ذاته، وخصائص صفاته، وآثاره الربانية في جميع مظاهر الكون والعالمين) (ص 264/263).

كما يدعو الباحث إلى ضرورة العودة إلى المصدر الأوحد، مذكراً بأن مزية الإسلام الكبرى تكمن في أنه (لبى الكينونة الإنسانية في جميع منازعها وأشواقها) (ص 279) فأرضى الروح والعقل، الذي جعل له دوراً في تلقي المعارف، من غير أن يجعله مصدر العلم الوحيد (ص 279).

يدعو الدكتور صبحي الصالح إلى ضرورة رصد المحاولات التي تهدف إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة بين المسلمين مقرراً بأن (قطف ثمرات التوحيد لن يستغرق زمناً طويلاً) (ص 316) ويحذر من إثارة الخلافات المذهبية حول بعض القضايا الفرعية، مؤمناً بأن الشرع الذي نتعامل معه على اختلاف اجتهاداتنا هو (شرع الله وحده) (ص 317)، معبراً عن ألمه تجاه كثير من الناس الذين (اعتقدوا بأن

الضغوط السياسية هي التي حملت نخبة من علماء الأزهر على إصدار فتواهم (العجيبة) التي سوَّغوا بها المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية في معسكر داوود (ص 317)، وقد أكد رفضه لهذه الفتوى في حينه، لأنها (لا تنسجم مع روح الشريعة، ولا تلائم الأصول المقررة فيها ولا تحقق للأمة مصلحتها..) (ص 317).

ويدعو العلماء والمفكرين والفقهاء والمسلمين جميعاً إلى ضرورة التوحد، والابتعاد عن الفرقة، مرددين مع ابن قيم الجوزية: الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها) (ص 325 - 326).

ومن هذه النتيجة الواعية يكون انطلاقنا نحو (الوحدة بعد الفرقة، ومن الجمود إلى الحركة ومن التقليد إلى الأصالة، ومن الكسل العقلي إلى الانتاج الحضاري، ومن القعود مع الخوالف إلى الموت في سبيل الله، مع قوافل الشهداء) (ص 326) لقد انتهى زمن الخيارات الصعبة، وأصبح طريقنا واضحاً وهو (طريق الوحدة بين جميع مذاهبنا) والمستقبل لهذا الدين (وبشر المؤمنين).

ونحن في حاجة ماسة إلى نماذج حية متحركة من العلماء والدعاة الذين يقودون الأمة نحو آفاق التقدم والنهضة في ضوء المبادىء والقيم الإسلامية. إن حضارة القرن العشرين ـ بالرغم من إنجازاتها ـ أخذت في الانحدار والسقوط، وذلك لغياب الروح العلمي. والابتعاد عن الدرب الصحيح، حتى صارت حضارة بلا قلب ولا قيم، وأصبحت تدور في الفراغ لضياع قيمة الإنسان، وقيمة الحضارة إذ عكست (التكنولوجيا) الآية فحرَّكت الجماد وحركت الآلة وأحلَّتها محل الإنسان) (ص 357) وتمركزت حول الغريزة لدى جنس واحد من بين سائر الأجناس (فانهزمت العواطف، وانتصرت الغرائز... ونتأت من بين أصابع الإنسان مخالب الوحش الذي فيه!!) (ص 358) وأفسد الثالوث المؤلف من تمجيد المتحرك، وتفضيل الغريزة، وتسلط السياسة على الدين مقومات الحضارة، كما أن عزلة الدين أدت إلى غياب الروح العلمي وصح قول القائل: (ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته) واندفع الناس في غباء (يستقذرون الطهارة، ويستطهرون القذارة)

(ص 359) ومن هنا ضاعت الحضارة.

وهنا يعرب الدكتور صبحي الصالح عن تفاؤله، إذ أنه يتوقع حلول حضارة جديدة (بدلاً من الحضارة الراحلة كما يتطلع إلى توهج النور بعد النجم الآفل، وينتظر حقولاً مثمرة بعد الروضات الذابلة)، مؤمناً بأن حضارة الإنسان تومض من جديد.. من الأفق البعيد لأنها حضارة الدين وقيم الروح) (ص 360).

وفي خاتمة الكتاب يتطلع المؤلف في مستهل القرن الخامس عشر الهجري داعياً في مرحلتنا الحاضرة إلى تناسي آراء المؤلفين في (الأحكام السلطانية) كالماوردي والفراء، بشأن وحدة السلطة السياسية (وأن نصطلح الآن مجرد اصطلاح عابر على الأخذ بآراء المفكرين الذين شَدَّدوا على أهمية المضمون الاجتماعي للنظام السياسي) (ص 365) كما يدعو إلى مراجعة (رصيدنا الأدبي والثقافي والحضاري) لنعيد بناء مناهجنا التعليمية، ونحدد طريقة العمل في مجامعنا العلمية واللغوية، وأن نرسم سياسة إعلامية مستنيرة في الصحف والمجلات وسائر الوسائل الإعلامية، لنخطط تخطيطاً جيداً للتربية والتعليم والثقافة في القرن الهجري الجديد.

إن هذه الوقفة الجادة التي يدعو إليها الدكتور صبحي الصالح ذات الجوانب والرؤى المتعددة هي التي تعطينا الفرصة لتجديد الثقة، واستئناف النشاط والحركة نحو دورة حضارية جديدة، وتؤكد من جديد أن أمتنا الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس.. ولا شك أن درب الكفاح طويل، ولكن الرجاء في الله كبير، والإيمان بالنصر مؤكد بإذن الله، والمستقبل لهذا الدين دون غيره من النظريات والأيديولوجيات، قال تعالى في كتابه الحكيم ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**.. ..﴾ [سورة الرعد، الآية: 17]. والعاقبة للمتقين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.